مكتبة الجاحظ

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
١٥٠ - ٢٥٥

بتحقيق وشرح
عبد السلام محمد هارون

الكتاب الثاني

البيان والتبيين

الجزء الأول

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

إهداء

حفظك الله وأبقاك وأمتع بك ، وجعل ما بيني وبينك من ود موصولا أبد الدهر ، فقد عرفتك صديقا لا يشوب صداقته زيف من شوائب الدنيا ، وعرفتك على تقادم العهد وتطاول الزمان ، أخا ثابت الإخاء وثيق النفس ، ليس كمن يدور بخلته بين الناس ملتمسا بها الغنم ، وباغيا بها النفع ، فكان ذلك ، أيدك الله ، مما أكبرك في عيني ، وأعظمك في نفسي ، وبسطني أن أقدم إليك هذا الكتاب الخالد لترى فيه ، ولتعلم أيها السمي الكريم ، أني أحفظ لك في نفسي مثل ما تحفظ لي من وفاء ، وأطوي لك صدري على مثل ما تطوي من ولاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـــ عرض الكتاب

وهذا الكتاب هو الحلقة الثانية من سلسلة مكتبة الجاحظ التى أخذتُ نفسى بإخراجها وجِلائها على الناس ، وهو ، لا جرم ، أسْيَر كتب أبى عثمان وأكثرها تداولا ، وأعظمها نفعاً وعائدة ؛ فبِه تخرّج كثير من الأدباء ، واستقامت ألسُنهم على الطريقة المثلَى . فهو أستاذ أرهاط متعاقبة من المتأدبين ، وهو شيخ جماعات متتابعة ممن صقلوا ذوقهم بصِقال الجاحظ ، ورفعوا فنّهم بالتأمل فى فنه وعبقريته .

٢ ـــ بعض أقوال القدماء

فيه يقول أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكرى [١] فى الصناعتين ، عند الكلام على كتب البلاغة : « وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين ، لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . وهو لعمرى كثير الفوائد ، جم المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبه عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة . إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة ، مبثوثة فى تضاعيفه ، ومنتثرة فى أثنائه ، فهى ضالّة بين الأمثلة ، لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير » .

وهو كلام رجل قد خبر الكتاب ورازَه ، ولكنه لم يشأ أن يرسم لنا صورة مفصلة واضحة .

---

(١) توفى نحو سنة ٣٩٥ .

وابن رشيق القيروانى (٣٩٠ ــ ٤٦٣) فى العمدة [١] يقول : « وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ ــ وهو علّامة وقته ــ الجهد ، وصنع كتابا لا يُبلَغ جودة وفضلا ، ثم ما ادّعى إحاطته بهذا الفن ؛ لكثرته ، وأنّ كلام الناس لا يُحيط به إلا الله عز وجل » .

أما ابن خلدون المغربى (٧٣٢ ــ ٨٠٨) فيسجل لنا رأى قدماء العلماء فى هذا الكتاب ؛ إذ يقول عند الكلام على علم الأدب [٢] : « وسمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين : وهى أدب الكتاب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى . وما سوى هذه الأربعة فتبعٌ لها ، وفروع عنها » .

٣ ــ تفصيل الكتاب

إنّ دأب الجاحظ فى تأليفه أن يرسل نفسه على سجيّتها ، فهو لا يتقيد بنظامٍ محكم يترسَّمه ، ولا يلتزم نَهجًا مستقيما يحذوه ، ولذلك تراه يبدأ الكلام فى قضية من القضايا ، ثم يدعها فى أثناء ذلك ليدخل فى قضية أخرى ، ثم يعود إلى ما أسلف من قبل . وقد كانت هذه سبيلَ كثير من علماء دهره ، كما أن علوّ سنه وجِدّةَ التأليف فى تلك الأبحاث التى طَرَقها ، كل أولئك كان شفيعاً له فى هذا الاسترسال والانطلاق .

وكان أبو عثمان يشعر بذلك ويعتذر عنه أحياناً ، فهو يقول عند الكلام على البيان [٣] : « وكان فى الحق أن يكون هذا الباب فى أول هذا الكتاب ، ولكنا أخّرناه لبعض التدبير » .

(١) العمدة (١ : ١٧١) فى باب البيان .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٨٠٥ .

(٣) الجزء الأول ص ٧٦ .

وهو يَعِدُ فى أواخر هذا الجزء [1] أن يتكلم فى الجزء الثانى على طعن الشعوبية على العرب فى اتخاذ المِخصرة ، ثم يحاول الوفاء بما وعد ، فى الجزء الثانى ، ولكنه يرى أن الفرصة لم تسنح له بعد ، فيعتذر بقوله : ولكنا أحببنا أن نصدِّر هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين ، والسلف المتقدمين ، والجِلَّة من التابعين ». ويمضى الجزء الثانى بأكمله ، ولا يستطيع صاحبنا الوفاء بما وعد به إلا فى صدر الجزء الثالث من الكتاب .

ونحن نستطيع أن نردَّ مباحث الكتاب وقضاياه إلى الضروب التالية :

(١) البيان والبلاغة (٢) القواعد البلاغية (٣) القول فى مذهب الوسط (٤) الخطابة (٥) الشعر (٦) الأسجاع (٧) نماذج من الوصايا والرسائل (٨) طائفة من كلام النساك والقصاص وأخبارهم (٩) عَرْضٌ لبعض كلام النوكى والحمقى ونوادِرهم (١٠) ضروب من الاختيارات البلاغية .

البيان والبلاغة :

تحدث الجاحظ فى تعريف البيان ، وساق فى تفصيلِ أنواعَ الدلالات البيانية من اللفظ ، والإشارة ، والعَقْد ، والنِّصبة [2] . وعقد أبواباً لمدح اللسان والبيان [3] ، وصنع موازنة بين لغة العامة والحضريين والبدويين [4] ، ونوه تنويها بصحة لغة الأعراب فى عصره [5] ، وروى مقطَّعات من نوادر الأعراب وأشعارهم [6] وتحدث فى لُكْنة النبط والروم [7] ، وعَرَض نماذج من كلام الموالى [8] ، وعقد فى الجزء الثانى باباً للَّحن وأخبار اللحانين ، بعد أن تكلَّم

(١) الجزء الأول ص ٣٨٣ .
(٢) انظر ١ : ٧٥ .
(٣) ١ : ١٦٦ ، ١٧٢ ، ١٩٢ .
(٤) ١ : ١٢٠ .
(٥) ١ : ١٥٧ .
(٦) الجزء الثالث .
(٧) ١ : ٧٠ .
(٨) ١ : ١٦١ — ١٦٥ .

فى الجزء الأول [١] على اللحن ومتى يُستملَح ومتى يُستهجَن . وفى الجزء الثانى عرض صوراً من صور العى والحَصَر ، وبسط مذهباً له فى وجوب أداء القصص والنوادر كما هى ، إن معربةً فمعربةٌ ، أو ملحونة فملحونة ، زاعماً أن الإعراب يفسد نوادر المولدين .

ولم ينس أن يسوق فى صدر كتابه طائفة من الآيات التى تنوِّهُ بشأن البيان والبلاغة ، ثم يعيد الكرة فى الحث على البيان والتبيين [٢] ، إذ يقول : « وأنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة ... » .

وهو لا يُغْفِل أن يتكلم فى مخارج الحروف ، ويبيِّنَ أثر سعة الشدق وأثر اكتمال الأسنان أو نقصها فى البيان [٣] ، وكذلك أثر لحم اللِّثة [٤] ، وكذا أثر سقوط الأسنان ، وينقل قول محمد الرومى [٥] : « قد صحت التجربة وقامت العبرة على أن سقوط جميع الأسنان أصلح فى الإبانة عن الحروف منه إذا سقط أكثرها » .

ويعقد باباً للحروف التى تدخلها اللثغة ، ويبيِّن : أىُّ لثغة أشنع وأيها أظرف [٦] . ولعل الذى دفعه إلى ذلك ما كان معروفاً من لثغة واصل بن عطاء المعتزلى ، الذى حاول أن يعتذر له ، وأن يجعل من هذا النقص الذى كان يتغلب عليه ، كمالاً وعبقرية يسوق فيها الدليل إثر الدليل [٧] .

وهو كذلك يروى طائفة صالحة من أخبار البلغاء والخطباء والأبيناء والفقهاء والأمراء [٨] ، ومن جمع بين الخطابة والشعر [٩] ، ويعرض نماذج من كلام الرسول فى صدر الجزء الثانى [١٠] ، كما عقد باباً للغز فى الجواب فى ذاك الجزء .

فإذا ما حاول الكلام فى البلاغة ، وهى المرتبة التى فوق البيان ، ذهب

---

(١) ١ : ١٤٦ . (٢) ١ : ١٤٥ . (٣) ١ : ٢٠٠ . (٤) ١ : ٥٨ .
(٥) ١ : ٦١ . (٦) ١ : ٦١ . (٧) ١ : ٦٤ .
(٨) ١ : ١٤ . (٩) ١ : ٩٨ . (١٠) ١ : ٥١ .

يسرُدُ تعريفها عند الفرس والروم والهند ، والأعراب ، وأعلام البلغاء ، كالعتابى وسهل بن هارون ، وعَمرو بن عبيد ، وابن المقفع [١] . ثم لايرضيه ذلك حتى يظفر بترجمة لصحيفة هندية ترسم حدود البلاغة وتبين أصولها [٢] .

ولم يتعرض لمسائل البلاغة التى عرفت فيما بعد ، إلا ما قَدَّمَ من كلام فى تنافر الحروف وائتلافها [٣] ، وكذلك وجوب مراعاة مقتضى الحال [٤] . وهو يتكلم فى الإيجاز والإطناب ويعيِّن المواضع الصالحة لكل منهما [٥] ، ويروى لنا الشعر الذى يمدح فيه الشعراء الإيجاز [٦] . ويتكلم فى المشاكلة البديعية ، ويعرض فيها أمثلة من القرآن والشعر [٧] .

القول فى مذهب الوسط :

يستطيع المتصفح لهذا الكتاب أن يلمح للجاحظ مجهوداً طريفاً ، فهو قد عقد باباً للصَّمت والحث عليه [٨] ، ويحكى أقوال المعارضين لأصحاب الخطابة والبلاغة الذين يفضلون هذا الصمت [٩] ، ويخصص باباً آخر يقذف فيه بطائفة من كلام المُغْرِبين وأصحاب التقعير [١٠] ، وأبوابا أخرى فى مديح اللسان وشدة العارضة [١١] ولكنه لا يرضيه هؤلاء ولا أولئك ، بل يرى أن كلا منهما قد جنح إلى غير الصواب ، وأن الصواب والخير كله فى إصابة القَدْر فى الكلام [١٢] ، وأن تكون الألفاظ والمعانى أوساطاً بينَ بينَ [١٣] .

(١) ١ : ٨٨ .
(٢) ١ : ٩٢ .
(٣) ١ : ٦٩ .
(٤) ١ : ١٤٩ .
(٥) ١ : ١٤٩ .
(٦) ١ : ٢٧٦ .
(٧) ١ : ١٥٢ .
(٨) ١ : ١٩٤ .
(٩) ١ : ٢٦٩ .
(١٠) ١ : ٣٧٧ .
(١١) ١ : ١٦٦ ، ٢١٢ ، ٢٣١ .
(١٢) ١ : ٢٧٧ .
(١٣) ١ : ٢٥٥ .

الخطابة :

وقد عنى الجاحظ بهذا الفن عناية خاصة . ولا غرو ، فالخطابة دِعامة من دعائم الدعوة . وكان المعتزلة يلجئون إلى الخطابة والجدال فى تأييد أمرهم ، وبيان مذاهبهم ومقالاتهم [١] . فهو يرسم للخطابة أدبا يستحسن فيه أن يقتبس القرآن والشعر [٢] ، ويبين ما ينبغى اتباعه فى ضروب من الخطب ، كخطبة النكاح [٣] ، وما تتطلبه الخطابة من الجهر بالقول وترفيع الصوت ، ذاكراً فى ذلك الخبر والمثل [٤] ومن عُرف بجهارة الصوت [٥] ، وهو يسترسل فيذكر أن الروم أهل جَهارة ، وينقل خبراً غريباً : « لولا ضجة أهل رومية وأصواتهم لسمِع الناس جميعا صوتَ وجوبِ القرص فى المغرب [٦] » . ويتكلم فى الدمامة ومدَى أثرها فى قدر الخطيب والشاعر [٧] ،ويتعرض للخلاف فى تأثير حركة الخطيب وإشارته ، أو سكونه وهدوء جوارحه ، فى سامعيه [٨] . ويتكلم فى استعمال المخاصر والعصىِّ فى الخطبة [٩] وطَعْن الشعوبية على العرب فى ذلك [١٠] ، ويذكر أسماء الخطباء وقبائلهم وأنسابهم [١١] وأخبار خطباء الخوارج خاصة [١٢] ، كما عقد باباً لأسماء الكهان والحكام والخطباء والعلماء من قحطان [١٣] ، وكما نوه بخَصلة إياد وتميم فى الخطب [١٤] . وهو فى أثناء ذلك يسرد مختارات قوية من خطب الرسول والخلفاء الراشدين ومن بعدهم ، وكذا خطب رجالات الخوارج وأهل الدعوة .

---

(١) ١ : ١٤ .
(٢) ١ : ١١٨ .
(٣) ١ : ١١٦ .
(٤) ١ : ١٢٠ .
(٥) ١ : ١٢٣ .
(٦) ١ : ١٣٣ .
(٧) ١ : ٢٣٧ .
(٨) ١ : ٩١ .
(٩) ١ : ٣٧٠ .
(١٠) ١ : ٢٨٣ ثم أول الثانى ، ثم أول الثالث .
(١١) ١ : ٣٠٧ .
(١٢) الجزء الثالث .
(١٣) ١ : ٣٥٨ .
(١٤) ١ : ٥٢ .

الشعر

والشعر وسيلة من وسائل البيان ، ومعرض من معارض البلاغة ، وله مِيسَم يبقَى على الدهر فى المدح والهجاء [١] ، وله أوزان لابد منها ولابد من القصد إليها ؛ فمن جاء كلامه على وزن الشعر ولم يتعمد هو هذا الوزن فليس كلامه بِشعر ، فقد ورد القرآن وفى الحديث كلام موزون على أعاريض الشِّعر ولكنه لا يسمى شعرا [٢] . ومن يجمع بين الشعر والخطابة قليل [٣] . وليس ينبغى للقصيدة أن تكون كلها أمثالاً وحكما ، فإنها إذا كانت كذلك لم تسِرْ ولم تجرِ مجرى النوادر [٤] وفى المولدين شعراء مطبوعون [٥] ، وللشعراء رسوم خاصة [٦] ، وقد كان بعض أبيات الشعر سبباً من أسباب تسمية الشاعر [٧] . والشعر خير الوسائل لتخليد الإنتاج الفنى ، « فما تكلمت به العرب من جيد المنثور ، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولاضاع من الموزون عُشرُه [٨] » .

السجع :

وهذا الفن من البيان يثير خلافا بين العلماء والأدباء والدِّيانيين ؛ فهناك حديث : « أسجع كسجع الجاهلية ؟! » .فهو فى ظاهره حجة لمن يرفض استعمال هذا الفن ويستهجنه ، وهو عند التأويل محمول على السجع الذى يراد به إبطال الحق [٩] . على أن من الأدباء من يرى أن السجع إنما كان منهيًّا عنه فى نأنأة الإسلام ، لقرب عهدهم بالجاهلية ، حيث كان السجع يجرى فى

---

(١) ١ : ١٥٦ .
(٢) ١ : ٢٨٧ ــ ٢٨٩ .
(٣) ١ : ٤٥ .
(٤) ١ : ٢٠٦ .
(٥) ١ : ٥٠ .
(٦) ١ : ٩٣ .
(٧) ١ : ٣٧٤ .
(٨) ١ : ٢٨٧ .
(٩) ١ : ٢٨٧ .

الكهانة والترجيم بالغيب ، فلما زالت العلة زال التحريم [١] . ولهذا شبيهٌ فى النهى عن مرثية ابن أبى الصلت لقتلى أهل بدر فى أول الأمر ، فلما زالت العلة زال النهى [٢] . ويسوق الجاحظ من بعد ذلك مأثورا من متخير السجع وبديعه [٣] .

الرسائل والوصايا :

ولقد كانت الرسائل والوصايا مظهرا من مظاهر البيان العربى ، فهو ينثر فى تضاعيف كتابه قدراً صالحا مختارا منها [٤] ، لتكون إماما يحتذى ، وقالبا يُصاغ عليه القول .

النساك والقصاص :

وللنساك حظ وافر من عناية الجاحظ فى الكتاب . فهؤلاء النساك الروحيون قد نبغ منهم نوابغ فى البيان ، فهم قوم قد لانت ألسنتهم ودق إحساسهم ، بما حفظوا كلام الله وحديث الرسول ، وهم قد تصدوا لوعظ العامة والتأثير فيهم ببليغ القول وحُسن المحاضرة ، وكانت لهم جَوْلات فى مساجد البصرة والكوفة ، حيث كانت تُؤْثر عنهم الحكمة وتروى العظة ، ويُتناقل البيان الرفيع .

وأما القُصَّاص فقد كانت صناعتهم تقتضيهم العناية بقوة البيان وحسن الأداء ، وكانوا ذوى فصاحة وبلاغة ، فمنهم:موسى بن سيار الأسوارى «كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور بِه ، فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ

---

(١) ١ : ٢٩٠ .

(٢) ١ : ٢٩١ .

(٣) ١ : ٢٧٤ ، ٢٩٧.

(٤) انظر الجزء الثانى .

الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها بالفارسية ، فلا يُدرى بأىٍّ لسان هو أبين [1]»

لذلك ولهذا عقد الجاحظ بابا لذكر النساك والزهاد من أهل البيان [2] ، وآخر لذكر القصاص [3] كما روى طائفة من كلام النساك [4] ومقطعات من كلام القصاص [5] ، كما خصص فى الجزء الثالث من الكتاب بابًا كبيراً فى الزهد ساق فيه مواعظ عيسى وداودَ عليهما السلام ، ومواعظَ الحسن وعمر وآخرين من النساك ، ومن زهاد البصرة والكوفة . وأتبع ذلك بمختارات من دعاء السلف الصالح ، والأعراب والنساك .

النوكى والحمقى :

والجاحظ ذلك المرِح الضاحك ، لا يفتأ يعجّب الناس من هذا الخَلْق الطريف ، أولئك الذين شاء الله أن يكونوا مصدر عبرة وموعظة ، كما شاء أن يكونوا مصدر عزاء وتسرية عن النفس . هؤلاء النوكى والحمقى قد يتفق لبعضهم من البيان السّاحر ، ومن التبيين العجيب ، مايكون فى الصدر المقدم من حسن التعبير وجميل التعليل ، كما يتفق لبعضهم أن يريد البيان فيخطىء خطأً ظاهراً أو خفيا ، فيكون كلامه عُواراً جديراً بأن ينبه الجاحظُ على التحذير منه ، وبأن يكشف عما به من خطل ومجانبة للصواب ، كما صنع فى باب العى . وهو يروى فى الجزء الثانى وفى الجزء الثالث طائفةً من أخبارهم وأقوالهم ؛ ليكون فى ذلك ترويح عن نفس المتصفّح ، ونفع له فى بيانه وعبارته ، وهدًى له أن يضل السبيل . ويستطرد الجاحظ فيما يستطرد فيلحق بهؤلاء النوكى والحمقى طائفةً خاصّة من المعلمين [6] ، لا يلبث أن يستثنىَ منهم

---

(1) ١ : ٣٦٨ .
(2) ١ : ٣٦٢ .
(3) ١ : ٣٦٧ .
(4) ١ : ٢١٠ .
(5) فى الجزء الثانى .
(6) ١ : ٢٤٨ ، ٢٥٠ .

جماعة من جِلّة المعلمين والمؤدبين .

الاختيارات :

والجاحظ بين الفينة والأخرى يوشّع كتابه بالجيّد المتخيّر من النثر والشعر ، ولا سيمّا فى الجزأين الثانى والثالث ، حيث تطالعك الأبيات الحسانُ والفقر المستملَحة . فمنها مايكون شاهداً لما يَبْغي أن يدعمه ويؤيّده من قضايا البيان ، ومنها مايرويه ليكون للحفظ والمذاكرة . وقد روى طائفة من مختارات المراثى ، ومن الخمريات ومن هجاء البرامكة ومديحهم ، ومما قيل فى الشيب ، ومما حوى الحكمة والزهد ، وروى كذلك كثيراً من أقوال الأعراب ونوادرهم ، وطائفة من أدب بنى العباس ومجموعة من قصار الخطب وطوالها ، ومتنخَّل الرسائل والوصايا، كما سبق القول .

هذه صورة لست أراها كاملة التكوين مستوفية الوضوح ، ولكنها تقرِّب الكتاب إلى قارئه تقريباً ، وتخط الخطوط الرئيسة التى يستطيع بها أن يتتبع ما يحوى الكتاب من فن .

٤ ــ أثر الكتاب

لعل من نافلة الكلام أن أردد القول فى عظيم أثر هذا الكتاب . ويمكننى أن أقول فى ثقة : إنه ليس يوجد أديب نابهٌ فى العربية لم يسمع بهذا الكتاب أو لم يُفِد منه . وقلَّما تجد أديباً من المحدَثين لم يتمرَّسْ بما فيه من أدب . كما كان من هذا الكتاب مادة غزيرة استمدّها كبار المؤلفين القدماء فى مؤلفاتهم كابن قتيبة [١] فى عيون الأخبار ، والمبرد [٢] فى الكامل ، وابن عبد ربه [٣] فى العقد ، والعسكرى [٤] فى الصناعتين ، والحُصْرى [٥] فى زهر الآداب وجَمْع الجواهر،

(١) سنة ٢١٣ ــ ٢٧٦ .

(٢) سنة ٢١٠ ــ ٢٨٦ .

(٣) ٢٤٦ ــ ٣٢٨ .

(٤) توفى بعد ٣٩٥ .

(٥) توفى سنة ٤٥٣ .

وابن رشيق [1] فى العمدة ، وعبد القاهر الجرجانى [2] فى دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وأسامة بن منقذ [3] فى لباب الآداب .

٥ — تاريخ تأليفه

ذكرت طَرفاً من ذلك فى مقدمة الحيوان [4] ، وسقت الدليل على أن الجاحظ ألّفه فى أخريات حياته ، حين علت به السنُّ وقَعَد به المرض ، وذكرت أيضاً أنه ألّفه بعد كتاب الحيوان ؛ إذ أننى عثرت على نَصٍّ قاطع فى البيان والتبيين يدل على ذلك ، وهو قوله : « كانت العادة فى كتب الحيوان أن أجعل فى كل مصحف من مصاحفها عشرَ ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار لِمَا ذكرتَ من عجبك بذلك ، فأحببت أن يكون حظُّ هذا الكتاب فى ذلك أوفر إن شاء الله ».

ومن المعروف أن الجاحظ أهدى كتاب البيان والتبيين إلى القاضى أحمد بن أبى دواد [5]، كما أهدى من قبله كتاب الحيوان إلى الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ ، وكتاب الزرع والنخل إلى الكاتب إبراهيم بن العباس الصولى المتوفى سنة ٢٤٣ ، وأن كلا منهم أعطاهُ خمسة آلاف دينار [6].

والذى يعنينا من هؤلاء هو القاضى أحمد بن أبى دواد . كان أحمد من بلغاء الناس وفصحائهم وشعرائهم ، وكان قد برع فى الفقه والكلام حتى بلغ ما بلغ وكان من أصحاب واصل بن عطاء المعتزلى ، فصار بذلك إلى الاعتزال ، وكان ذا حُظْوةٍ عند المأمون ، وقد أُوصى به أخاه المعتصم ، فلما صارت الخلافة إليه جعله قاضىَ القضاة بعد أن عزل يحيى بن أكثم . ولما مات المعتصم وتولى ولده

(١) ٣٩٠ — ٤٦٣ .

(٢) توفى سنة ٤٧١ .

(٣) ٤٨٨ — ٥٨٤ .

(٤) مقدمة الحيوان ص ٢٦ .

(٥) ١٦٠ — ٢٤٠ .

(٦) إرشاد الأريب (١٦ : ١٠٦)

الواثق حسنت حال أبى دواد فى أول خلافته ، فقلد المتوكل ولده محمد بن أحمد القضاء مكانه ، ثم عُزل وقلد يحيى بن أكثم ثانية ، وتوفى أحمد سنة ٢٤٠ ، وكان بين محمد بن عبد الملك وبين أحمد بن أبى دواد منافسة شديدة ، وكان الجاحظ ملازماً لمحمد بن عبد الملك خاصًّا به ، وكان منحرفاً عن أحمد بن أبى دواد للعداوة كانت بين أحمد ومحمد ، ولما قبض على محمد هرب الجاحظ فقيل له : لم هربت ؟ فقال : « خفت أن أكون ثانى اثنين إذ هما فى التنور ! » . يريد ما صنع بمحمد وإدخاله تنور حديد فيه مسامير ، كان هو صَنَعه ليعذب الناس فيه ، فعذِّب هو فيه حتى مات

ويروى ياقوت [1] ، أنه بعد قتل ابن الزيات جىءَ بالجاحظ مقيداً إلى مجلس ابن أبى دواد ، فجرت بينه بين القاضى محاورة انتصر فيها الجاحظ ، وكان من عاقبتها أن رضىَ عنه ابن أبى دواد وأجازه وقربه إلى نفسه .

وهذا الخبر يعين لنا أن كتاب البيان والتبيين لم يظهر إلا بعد سنة ٢٣٣ ، وهى السنة التى قتل فيها ابن الزيات .

٦ — نسخ الكتاب

النسخة الأولى والنسخة الثانية :

يذكر ياقوت [2] أن كتاب البيان والتبيين نسختان : « أولى وثانية ، والثانية أصح وأجود » . فيشتد سؤال الأدباء : أين أولاهما وأين الأخرى ؟ وكان من صُنْع الله حينما اتجهت إلى معارضة أصول الكتاب بعضِها ببعض ، أنْ تبيَّن لى فى أثناء ذلك أن نسخة مكتبة كوبريلى ، هى أصحّ نسخةٍ من أصول الكتاب ، ولحظت أيضاً أنها كثيراً ما تنفرد ببعض النصوص والعبارات ، التى لا توجد فى

(١) إرشاد الأريب (١٦ : ٧٩) .

(٢) إرشاد الأريب (١٦ : ١٠٦) .

سائر النسخ ، أو توجد ولكن بعبارةٍ أخرى مخالفة . كما أن سائر النسخ كثيراً ما تتفق فى ذكر نصوص وعبارات لا نجدها فى نسخة كوبريلى ، أو نجدها ولكن بصورة أخرى . ومهما يكن من شئ فلا ريب عندى أن نسخة كوبريلى هى أصح النسخ وأوثقها وأوفرها نصاً ، ونستطيع أن نترجم هذا بأن القائم لدينا من أصول الكتاب نسختان : إحداهما نسخة كوپريلى ، والأخرى ما عداها من النسخ التوائم التى قلما تشذ واحدة منها عن الأخرى [١] .

وصف المخطوطات :

جعل الجاحظ كتابه هذا فى ثلاثة أجزاء ، كما نص على ذلك فى أول الجزأين الثانى والثالث . وقد توافر لى من نسخ الكتاب أربع مخطوطات :

(الأولى) : نسخة مكتبة كوبريلى [٢] المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم (٤٣٧٠ أدب) ، المرموز لها بالرمز (ل) . وهذه النسخة المصورة فى أربع مجلدات أصلها المخطوط جزءان اثنان ، ولكنها مع ذلك تنبِّه فى آخر كل جزء من تقسيم الجاحظ على أنه قد انتهى وابتدأ الذى يليه . والجزء الأول فى ٣٥٦ صفحة والثانى فى ٣٥٥ ، وفى كل صفحة ١٧ سطراً ، وبكل سطر نحو عشرين كلمة . وهذه النسخة القديمة مكتوبة بخط جميل وضبط دقيق . وفى نهايتها : « كمل السفر الثانى ، وبتمامه تم الكتاب بأسره بفضل الله وعونه . والصلاة على سيدنا محمد وآله فى الجمعة سابع المحرم بن سنة أربع وثمانين وستمائة . علقه الفقير إلى الله أحمد بن سلامة بن سالم المعرى » .

---

(١) تجد أيضا أن افتتاح نسخة كوبريلى وحدها « الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى » ، أما سائر النسخ فتتفق فى أن افتتاحها « بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على محمد النبى الكريم وسلم ، عونك اللهم وتيسيرك » .

(٢) نص خاتم وقف هذه المكتبة «هذا مما وقفه الوزير أبو العباس أحمد بن الوزير أبى عبد الله محمد ، عرف بكوبريلى ، أقال الله عثاره ١٠٨٨ » .

(الثانية) : نسخة دار الكتب المصرية المحفوظة برقم (٤٧١ أدب) وهى المرموز لها بالرمز (ب) وهى فى مجلد واحد يقع فى ٧٠٠ صفحة بكل صفحة واحد وعشرون سطراً ، وبكل سطر نحو ١٣ كلمة ، وهى مكتوبة بالخط الفارسى الجميل وليس بها ضبط ، وعنوانها عجيب « كتاب البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن يحيى (كذا) الجاحظ وهو كتاب جيد النظم والنثر الموضوع على منوال كامل المبرد (كذا) بل يفوق عليه حسناً وبلاغة » . وكتب فى صدرها أيضاً « فيما صار نسخه بالمدينة المنورة على ذمة الكتبخانة الخديوية . ومضاف فيماه مايو سنة ١٨٨٢ » . وكلمة « فيماه » مكونة من « فى » العربية ، و « ماه » الفارسية التى بمعنى شهر ، فتاريخ هذه النسخة يرجع إلى سنة ١٢٩٩ الهجرية .

(الثالثة) : نسخة دار الكتب المصرية المحفوظة برقم (١٨٧٢ أدب) وهى المرموز إليها بالرمز (جـ) وهى فى مجلد يقع فى ٥٧١ صفحة بكل صفحة واحد وعشرون سطراً ، وبكل سطر نحو ١١ كلمة . وهى مكتوبة بالخط المعتاد وليس بها ضبط ، ولكن بها أثر قراءة وتصحيح ، وبعض كتابات ذاهبة فى الندرة بخط المغفور له العلامة محمد محمود بن التلاميد التركزى الشنقيطى ، وقد ألصق بآخرها ورقة بها تعليقات فهرسية لمواضع متفرقة من الكتاب بخطه أيضاً . وفى خاتمة هذه النسخة : « وكان الفراغ من كتابه هذا الكتاب يوم الخميس المبارك الموافق ١١ محرم الحرام سنة ١٣٠٩ ثلثمائة وتسعة بعد الألف ، على يد كاتبها الفقير راجى عفو الكريم ، محمد سليم » .

(الرابعة) : نسخة المكتبة التيمورية المحفوظة برقم (٤٩٨ أدب) ، وهى فى مجلد واحد به ٥٨٨ صفحة مكتوبة بالخط الفارسى المعتاد ، وبكل صفحة ١٩ سطراً وبكل سطر نحو ١٧ كلمة ، وبهوامش هذه النسخة تعليقات كثيرة

بخط الناسخ وكتب فى صدرها : « من كتب الفقير عبد السلام المويلحى فى ٢ رجب سنة ١٢٨٥ » ، وهذه النسخة مجهولة التاريخ ، وبها عدة أسقاط قيَّد موضعَها فى أول الكتاب العلاَّمة المغفور له أحمد تيمور باشا . وتبلغ هذه الأسقاط نحو ٢٠ صفحة من مواضع متفرقة .

الطبعات السابقة :

(١) النشرة الأولى فى مجلدين فى ٢٢٢ صفحة و ١٩٠ صفحة ، وذلك بالمطبعة العلمية من سنة ١٣١١ ـــ ١٣١٣ ، عنى بها حسن أفندى الفاكهانى إلى نهاية الكراسة السابعة من الجزء الأول ، وباقى الكتاب بعناية الشيخ محمد الزهرى الغمراوى ، وهذه النشرة مجردة من الضبط ، وبها تعليقات يسيرة فى الجزء الأول فقط .

(٢) النشرة الثانية فى ثلاث مجلدات فى ٢١٨ صفحة ، ١٩٦ صفحة ، ٢٣٦ صفحة . وذلك فى مطبعة الفتوح ومطبعة الجمالية سنة ١٣٣٢ . أشرف عليها الأستاذ الكبير السيد محب الدين الخطيب ، ونجد فى نهاية الجزء الثالث : « وكتب بعض حواشى هذا الجزء إبراهيم بن محمد الدلجمونى الأزهرى [١] ، عُفى عنه » . وهذه الطبعة بها قليل من الضبط وقليل من التعليق ، وتمتاز عن سابقتها بالإشارة إلى بعض روايات النسخ المخطوطة ، ومما يجدر ذكره أن تلك النسخ المخطوطة غير معينة .

(٣ ، ٤) النشرة الثالثة والرابعة ، صنع الأستاذ الجليل حسن السندوبى ١٣٤٥ ، ١٣٥١ وكل منهما فى ثلاث مجلدات ، وتمتاز الرابعة بكثرة التعليقات والتراجم ، وألحق بهما بعض الفهارس .

هذا وقد طبع كتاب عنوانه « منتخبات من البيان والتبيين » يقع فى

---

(١) كان غفر الله له من أعلام أدباء الأزهر ، وقد تلمذت له عاما فى الأزهر سنة ١٣٤٠. ومن آثاره شرح ديوان الحماسة المنسوب للرافعى ؛ ونشرة من كامل المبرد .

ثمانين صفحة ، وذلك بمطبعة الجوائب ١٣٠١ ثم بمطبعة الرغائب ١٣٢٨ . وكتاب آخر عنوانه « مختار البيان والتبيين » باعتناء الأديبين : خليل بيدس ، وشريف النشاشيبى ، وهو فى ٢٤٨ صفحة طبع بمطبعة بيت المقدس سنة ١٩٣٣ الميلادية .

٧ ـــ تحقيق الكتاب

عندما فرغت من تحقيق تلك المَعْلمة الكبيرة ، أعنى كتاب الحيوان ، رأيت أن ألتمس شيئاً من الهدوء والرَّوح ، إثر ذلك المجهود العاتى ، ولكن تلك الرغبة الملحة فى بعث مكتبة الجاحظ،وهى رغبة توشك أن تكون جهاداً، حملتنى أن أدخل فى الميدان كرة أخرى ، استجابة لدعوة النفس ، وتلبية لإرادة صديق كريم أثيرٍ لدىّ، هو الأستاذ « **عبد السلام محمد الناظر** » ، الذى سعدتُ بأخوته وزمالته زهاء ربع قرن قضينا منها ثمانى سنين جنباً إلى جنب زمانَ الطلب بدار العلوم ، فقد أرادنى على أن أعجل بوفاء ما وعدت به من قبل ، فكان بتلك الرغبة الكريمة وبما أخذ على عاتقه من المشاركة فى نفقات الطبع،صاحب فضل عظيم فى ظهور هذه النشرة الحديثة من البيان التى جعلت إهداءها إليه .

وكان الأدباء من قبلُ يجدون كثيراً من العسر ، ويلمسون كثيراً من الاستغلاق ، الناجم عن تحريف النصوص وتصحيفها ، وقلة التعرض لبيان ما بها من إشارة ، وحل مافيها من رموز ، فلما شرعت فى تحرير هذا الكتاب هالنى ما رأيت فى الطبعات السابقة من تحريف وتشويه ، مع أن الذين تولوا هذه النشرات علماء فضلاء ، ذلك أنهم لم يعنوا بدراسة الأصول المخطوطة دراسة متصلة ، ولم يراعوها مراعاة تامة ، فلم يسعفهم فضلهم الواسع بإخراج النسخة القريبة من السلامة ، أما نسختنا هذه فقد عورضت على المخطوطات التى أسلفت وصفها فى الفصل السابق وصنعت ـــ فيما نرى ـــ على ما تقتضيه أساليب النشر الحديث ، وأُعدَّت لها الفهارس الكاشفة عن خباياها وما بها من خير كثير .

وقد اتَّخذتُ نسخة كوپريلي أصلاً لهذه النشرة ، منبهاً على ما بينها وبين سائر النسخ من خلاف . وما كان من زيادة فى سائر النسخة على سائر النسخ لم أنبه عليه . وهو كثير ، وما كان من زيادة فى سائر النسخ أضفته بين معقفين : [ ]ونبهت عليه . على أننى فيما بعد صفحة ٢٩٤ من هذا الجزء قد أضربت عن هذا التنبيه ؛ تجنُّباً للإسهاب ، وجعلت وضع الكلمة بين المعقفين دليلاً على أنها من سائر النسخ ، وقد أثبت أرقام نسخة الأصل على جوانب الصفحات مكتفياً بذكر الصفحات عن ذكر رقم الجزء ؛ فإن الجزء الثانى من الأصل إنما يبدأ فى نحو منتصف الجزء الثانى من نشرتنا هذه ، وسأنبّه على ذلك فى حينه .

وعُنيت بضبط الكتاب محققاً مابه من الألفاظ الغريبة والكلمات الفارسية والبصرية ونحوها ، كما عنيت خاصة بتحقيق الأعلام وترجمتها على ما فى ذلك من عسر شديد وجهد جهيد ، فقد أُرْبَت الأعلام المترجمة فى هذا الجزء فقط على الأربعمائة والأربعين ، وبذلت العناية فى تحقيق النصوص وتخريجها ، ونسبة الشعر إلى قائله ، منبهاً على المراجع من الدواوين وغيرها من كتب اللغة والأدب والتاريخ والسِّيَر والحديث والتفسير والقراءات .

وأما تقسيم الكتاب فقد أبقيته كما صنع الجاحظ ، ثلاث مجلدات ، لم أحدث فيه تغييراً ، ولم أُضف إليه شيئاً من العناوين .

وقد شك بعضهم فى التفسيرات اللغوية التى وردت فى صلب الكتاب ،فظن أَنها من زيادات القراء والناسخين،وقد فاته أن الجاحظ قد عمد إلى تفسير كثير من لغات كتابيه : الحيوان ، والبيان . ويجد القارىء فى ثنايا الحيوان كثيراً من التفسيرات والنصوص اللغوية التى تناقلها اللغويون ورووها عن الجاحظ . ولقد استطعت أن أستخرج فهرساً كبيراً للمواد اللغوية الجاحظية فى كتاب

الحيوان ، وقع فى نحو ٢٧ صفحة [١]، لذلك حافظت على هذه النصوص وأبقيتها فى مكانها من صلب الكتاب .

٨ — الفهارس

وستضاف إلى الكتاب فهارس تقتضيها طبيعته ، وهى :

١ — فهرس البيان والبلاغة

٢ — « الخطب .

٣ — « الرسائل والوصايا .

٤ — « الأشعار والأرجاز .

٥ — « الأمثال .

٦ — « اللغات .

٧ — « الأعلام .

٨ — « القبائل والأرهاط والطوائف .

٩ — « البلدان .

١٠ — « أيام العرب .

١١ — « معالم الحضارة .

١٢ — « الكتب

ويلحق بها من بعدُ جريدةُ تعيين المراجع والمصادر ، وطائفة من الاستدراكات العامة للكتاب .

اللهم منك نستمدّ التوفيق ، وبك نستعين ، وعليك نعتمد . والحمد لله رب العالمين .

منشية الصدر فى صبيحة الاثنين ١١ شوال سنة ١٣٦٧ هـ
١٦ أغسطس سنة ١٩٤٨ م

عبد السلام محمد هارون

(١) انظر الحيوان (٧ : ٥٨٨ — ٦١٥) .

مقدمة الطبعة الثانية

كنت قد أشرت فى أواخر الجزء الرابع من الطبعة الأولى أننى عثرت على نسخة خامسة من أصول الكتاب ، جلبها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية من مكتبة (فيض الله) بالآستانة . ورقم هذه النسخة فى المكتبة هو ١٥٨٠ ورقمها فى المعهد ٨٨٧ وهى مخطوطة بخط أندلسى كتبها بخطه لنفسه محمد بن يوسف بن محمد بن يوسف بن حجاج بن زهير اللخمى ، وهو نقلها من نسخة أبى ذر بن محمد بن مسعود الخشنى ، وعليها بخط أبى ذر ما يفيد أنّ نسخة أبى ذر منسوخة من نسخة أبى جعفر البغدادى . ونسخة أبى جعفر هذه كتبت فى غرة ربيع الآخر من سنة ٣٤٧ . وقد رمزت لهذه النسخة بالرمز (هـ) .

فكان من حظ هذه النشرة الثانية أن تظفر بمقابلة كاملة على نسخة مكتبة (فيض الله) . وبذلك امتازت هذه الطبعة بكثير من التصحيحات ، وتعديل فى الشروح والتعليقات ، وببعض الإضافات الحديثة .

وقد وجدت اشتراك نسختى (ل) و (هـ) فى كثير من الإضافات التى كنت قد وضعتها فى النشرة الأولى بين علامتى الزيادة [ ] مقتبسة من نسخة (ل) فقط ، فلما وجدت هذا الاشتراك ساريا فى الجمهور من هذه المواضع أغفلت وضع علامتى الزيادة فى كل مااشتركا فيه ؛ لما وضح لى أنهما أصلان عظيمان من أصول الكتاب .

وقد أدخلت فى أصول الكتاب وحواشيه ما كان قد عنّ لى من تصحيحات ، وماظهر لى من صواب أخطاء الطبع ، فجاءت هذه النشرة أصح من سابقتها وأدنى إلى الكمال الذى نبغى . والحمد لله وحده .

صورة الصفحة الأولى من نسخة كوبريلي

١٥٨٠

صورة الصفحة الأولى من نسخة مكتبة فيض الله

صورة الصفحة الأخيرة من نسخة مكتبة فيض الله